

(مقتطفة.. وموقف)

الأدب نافذة على النفس "مقتطفة... ووداع صلاح عبد الصبور" وهل يعود يومنا الذي مضى من رحلة الزمان؟



yehiatrakhawy@hotmail.com

نشرة "الإنسان" 2019/02/11

السنة الثانية عشرة - العدد: 4179

بروفيسور يحيى الرخاوي - الطب النفسي، مصر

مقدمة:

لعلها فرصة حقيقية ونحن نبحت عن تاريخ وأصول هذا الفكر العربي المصرى البسيط أن نرجع إلى المجلة الفصلية الأم الإنسان والتطور وننتقى منها بعض معالم هذا الفكر، وخاصة فيما يتعلق بتنمية الموقف النقدي، الذى ظل جليا من أول عدد من مجلة "الإنسان والتطور" (يناير 1980) مثلا فى باب جديد باسم "نقرأ معا مرة ثانية: مقتطف وموقف" حيث كنا نختار نصا، ثم نقرأه معا، بحروف مكتوبة، ثم ندعو للحوار، هذا وقد آن الأوان أن أعلن أنني شخصا كنت مسئولاً عن هذا الباب مسئولية كاملة - بلا توقيع - طوال عمر المجلة.

مقتطف من مجلة الإنسان والتطور الفصلية (1980 - 2001)

(مقتطف وموقف) (1)

الأدب نافذة على النفس

"مقتطف... ووداع صلاح عبد الصبور"

وهل يعود يومنا الذى مضى من رحلة الزمان؟

وهل يعود صلاح لو كان قد ذهب ..؟ لقد مات كما يموت الناس وكما سيموت الناس، وإن كان الموت مازال أحق الحقائق إلا أنه أغمضها قاطبة، ونحن نزع أن الطفل لا يعرف معنى الموت الحقيقي إلا حول العاشرة، وكأننا نعرف معنى الموت، قولوا ذهب، لم يعد فى متناول الزمن المعروف، لم يعد بقادر على الحوار - شخصا - معنا، أما أن تقولوا مات فهذا هو الغموض بعينه. وكنا فى هذه المجلة المتواضعة التى لانظن أنه سمع عنها - رغم أننا أرسلنا إليه عددا أو أكثر - كنا بدأنا نجمع "أحزان صلاح" نتعلم منها، ونعلم منها، ماهية الحزن العظيم، الحزن الشرفى، الحزن الوعى، الحزن المسئولية، الحزن الأمل.. وفعلها أحد شباب لجنة المجلة وهو يراجع أعماله الكاملة، ولم نكد نبدأ لنظن من نافذته على النفس حتى حدث هذا الذى أسميناه الموت ولم نعرف كيف أو لماذا أو بأى حق أو لأى معنى.

وليس هذا وقت الرثاء القديم، ولا هو عاد يصلح لأحد ولا لشيء، ولسنا فخورين أن نعدد مناقبه هاتين مع الصادقين بأنه كان صديق الكلمة، عابد الوعى، مكتشف الداخل، ناسجا للممكن من خيوط المستحيل، كل هذا لم يعد يفيد أحدا فى عصرنا هذا، فلا الراحل عاد يطرِب لأن أحدا رآه كما هو، ولا الباقيين بمستزيدين شيئا من كلمات تأبين مريحة قد تعفيهم من حمل مشاعل الكلام نغما جديدا وإبداعا مستمرا وأمانة مرهقة.

اذن ماذا نقول ؟

نحن نزع أن الطفل لا يعرف معنى الموت الحقيقي إلا حول العاشرة، وكأننا نعرف معنى الموت

كنا فى هذه المجلة المتواضعة التى لانظن أنه سمع عنها - رغم أننا أرسلنا إليه عددا أو أكثر - كنا بدأنا نجمع "أحزان صلاح" نتعلم منها، ونعلم منها، ماهية الحزن العظيم، الحزن الشرفى، الحزن الوعى، الحزن المسئولية، الحزن الأمل

لو نكد نبدأ لنظن من نافذته على النفس حتى حدث هذا الذى أسميناه الموت ولم نعرف كيف أو لماذا أو بأى حق أو لأى معنى.

لعل أطيّب الرثاء وأصدقّه هو أن نخاف على كلماته ونعيد النظر فيها من بعد أن كان يتمنى أن نراه
فينكسر بنا وحدته، أو أن نراه أبعد من رؤيته فيتعرف على ذاته من خلالنا..، هذه هي الأمانة التي
تحملها لنا كلماته وكلمات كل من خط بالقلم تاركاً أثراً يثرى التاريخ ويجدد معالم المسيرة ويضيف إليها.
ليكن...

وداعاً ياصلاح، ولنبدأ الحوار في حضورك وبشهادتك رغم الموت، ولتستمر بيننا بما تبذله من جهد
كلماتك المضيئة.

“فقد أردنا أن نرى أوسع من أحقادنا” ولتقطف هذه المرة كلمة صغيرة نطل من خلالها على عالمنا
النفسي المجهول من قصيدته “أغنية إلى الله”

حزنى غريب الأبوين
لأنه تكون ابن لحظة مفاجئة
ما مخضته بطن
أراه فجأة إذ يمتد وسط ضحكتي
مكتمل الخلقه موفور البدن
كأنه استيقظ من تحت الركام
بعد سبات من الدهور
لقد بلوت الحزن حين يزحم الهواء كالدخان
فيوقظ الحنين، هل نرى صحابنا المسافرين
أحبابنا المهاجرين
ثم بلوت الحزن حين يلتوى كأفعوان
فيعصر الفؤاد ثم يخنقه
وبعد لحظة من الأسار يعتقه
ثم بلوت الحزن يفيض جدولا من اللهب
يتجمع في إشراقة نور الغد
ثم يمر ليلنا الكئيب
ويشرق النهار باعثا من الممات
جذور فرحنا الحبيب
لكن هذا الحزن مسخ غامض مستوحش غريب
فقل له يارب أن يفارق الديار
لأننى أريد أن أعيش فى النهار.

إن هذا التصوير المحدد فى البداية، لا يقوله إلا من عاش لحظة اللحظة حين يبعث الشئ من
نقيضه، وحين تكون البداية ليست قصة أسباب مسطحة، وتعليقات إحباط تافهة، ولكن تكون هى لحظة
الولادة التى تبدو بلا مخاض، هكذا، وهذه الظاهرة هى التى سبق أن أسميتها فى المرض “بداية البداية”
وهى هى التى تصف لحظة بداية اليقظة أو صحوة القديم (قبل التفكك أو التناثر أو النكوص) واللحظتان
هما واحد، ولا يفرق بين الولادة الجديدة للنمو، أو للتدهور والنكوص والتفكك، إلا المسار التالى لهذه
اللحظة الفريدة، ووصف صلاح لهذا الذى يجرى بهذه الدقة هو الذى يعلمنا بعض معالم التغير الكيفى
المميز لصدق مسيرة النمو، والإبداع أحد مظاهرها، وحين يولد الحزن هكذا كبيرا كاملا “مكتمل الخلقه
موفور البدن” فإنه يعلن أن المسألة ليست وليدة صدفة، ولا هى إنعكاس خيبة أمل عابرة، ولكنها حياة
داخلية مكتملة، إلا أنها لا تعلن الحزن إلا لحظة أن يصل إلى دائرة الوعي، مخترقا الضحكة الممتدة
على السطح، وهذا التعبير هو خلاف تعبير الشاعر ممتدا وسط ضحكتي، وتصورى من واقع الخبرة
الإكلينيكية، أن الحزن “يخترق” أولا كالسهم المارق وسط ضحك ممتد ثم يمتد كاللهب المنذفع على صفحة

كان صديق الكلمة، عابدا
الوعي، مكتشفه الداخل،
ناسجا للممكن من خيوط
المستحيل

حين يولد الحزن هكذا كبيرا
كاملا “مكتمل الخلقه موفور
البدن” فإنه يعلن أن المسألة
ليست وليدة صدفة، ولا هى
إنعكاس خيبة أمل عابرة،
ولكنها حياة داخلية مكتملة

أنها لا تعلن الحزن إلا لحظة
أن يصل إلى دائرة الوعي،
مخترقا الضحكة الممتدة
على السطح

أن الحزن “يخترق” أولا
كالسهم المارق وسط ضحك
ممتد ثم يمتد كاللهب
المنذفع على صفحة الضحك
المتراجح حتى يملأ وجه الساحة

لقد بلوت الحزن حين
يزحم الهواء كالدخان
فيوقظ الحنين، هل نرى
صحابنا المسافرين
أحبابنا المهاجرين

حقيقة أن الحزن يزحم الهواء

كالدخان، ولكن ياترى هل
هذا هو الحزن الذي يوقظ
الحنين؟

الحزن التالي فى نفس المقطع
هو ذلك الحزن المتبادل مع
الإنفراج

” ثم بلوت الحزن حين
يلتوى كأفغوان
فيعصر الفؤاد ثم يخنقه
وبعد لحظة من الأسار
يعتقه ”

ثم يتأكد هذا المعنى بصورة
أكثر حركة واشتعالا فى
”الحزن اللهب“
” ثم بلوت الحزن حينما
يفيض جدولا من اللهب ”

الحزن الذى يتصوره
المتعجلون من الأطباء أنه
همود وبطء حركى وثقل
نفسى .. الخ ماهو إلا حركة
الحياة الصاخبة

وغم أن جذور الفرح جذباء،
فالواضح أنها مادامت بعثت
من الممات فسوف تورق لا
محالة

الضحك المتراجع حتى يملأ وجه الساحة، ولعل صلاح يعلن هذه التالفة بعد أن أشار إلى مروق السهم
المبدئى بالتأكد على كونه ابن لحظة مفاجئة، ثم يقفز إليه وهو يمتد، وتكاد تظهر فى هذا التصوير
ولادة النقيض من نقيضه إلا أن العمق الذى ينبغى الإنتباه إليه هو كلمات النقيض المتكررة فى وصف
عملية الولاة الديالكتيكى هى كلمات خادعة فى الأغلب لأنها تصف مستوى بذاته لا ينبغى أن يأخذ كل
هذا الأهتمام حتى يستحق إسمها بذاته ثم يتحدد بتحديد نقيضه، فالحزن الحى (مثلا) هو بهجة فى ذاته،
فأين التناقض؟

وصلاح يعيش الحزن بكل أبعاده، وهو يشير فى مقطع واحد إلى أنواع من الحزن فى نفس القصيدة
يميزها ويعرفها تمام المعرفة بلا أى تداخل، كأنه يسير فى بيته.

فهو أولا يضيف الحزن الدخان، ولكن العجب أنه يعتبر هذا الحزن الرمادى القبيح موقظا للحنين، وقد
تصورت أن يرفض ويشجب هذا “ الحزن يزحم الهواء كالدخان ” لأنه لا يعنى عندى سوى الكثافة
الضبابية الخائفة لذلك فقد عجبت حين جعله صلاح، ” يوقظ الحنين للصاب المسافرين والأحباب
المهاجرين ”

” لقد بلوت الحزن حين يزحم الهواء كالدخان
فيوقظ الحنين، هل نرى صابنا المسافرين
أحبابنا المهاجرين ”

حقيقة أن الحزن يزحم الهواء كالدخان، ولكن ياترى هل هذا هو الحزن الذى يوقظ الحنين؟ أم أن
الأمر قد إختلط على الشاعر فتخطى خطوة هامة دون أن ينتبه إلى التحول اللازم حين ينتقل هذا الحزن
الذى يزحم الهواء كالدخان إلى حزن “ يزحم السماء كالسحاب ”؟

ثم تتساقط من هذا الكيان المجسد المكثف قطرات الحنين الذى ينادى الغائبين، أقول لعل النقلة غابت
عنه، أو أنها تمت بسرعة فائقة فلم يلتقطها، أو أننا لا يصح أن نعمم التجربة وعلينا أن نتعلم من
الإختلاف، ولكن الحس الشعرى والتسلسل الطبيعى يكادان يبايان أن يكون الحزن الدخان هو هو مباشرة
مولد الحنين

والحزن التالي فى نفس المقطع هو ذلك الحزن المتبادل مع الإنفراج

” ثم بلوت الحزن حين يلتوى كأفغوان
فيعصر الفؤاد ثم يخنقه
وبعد لحظة من الأسار يعتقه ”

وهذا التناوب قد يتم فى لحظة مثلا، وقد تدرك هذه اللحظة وقد لاتدرك ولا تعى إلا آثارها، وقد يسمى
هذا النوع باسم ”المختلط“ باعتبار أن هذه النقلات من السرعة بحيث تعلن تواجد الاعتصار والانعقاد
معا مع تبادل تواجدهما فى الوساد الواعى، وهذا التبادل المحدد أقرب إلى الحقائق النفسية المتداولة من
إنبعات الحنين من داخل الحزن الدخانى (أو بالأصح: تقاطر الحنين من الحزن السحاب)، وإن كانت
الصورتان (وقبلهما امتداد الحزن على صفحة الضحكة) دالتين على هذا التلازم بين الحزن ونقيضه.

ثم يتأكد هذا المعنى بصورة أكثر حركة واشتعالا فى ”الحزن اللهب“

” ثم بلوت الحزن حينما يفيض جدولا من اللهب ”

فالحزن الذى يتصوره المتعجلون من الأطباء أنه همود وبطء حركى وثقل نفسى .. الخ ماهو إلا حركة
الحياة الصاخبة، وحين تتجمع أجزاءه فى فاعلية القضاء، ترسل الطلقات الملتهبة مضيئة أو حارقة حسب
مقتضى الحال، وتوليد النفاض هنا ليس باديا لأنه ركز على نتاجها من فيضان اللهب، وصلاح يوظف
اللهب محركا للتذكريات المؤلمة، وهذا صحيح فى رحلة الإجتراح المؤلم، إلا أن اللهب عادة لا يكتفى بأن
يكون ماء النار الذى يملأ كأس الألم فى حدائق التذكريات، لأننا إذا احتلمانا وحافظنا على رفعه، لاستمر
يتراقص حتى

” يتجمع فى اشراقه نور الغد

ثم يمر ليلنا الكئيب
ويشرق النهار باعنا من الممات
جذور فرحنا الحبيب ”

ورغم أن جذور الفرح جذباء، فالواضح أنها مادامت بعثت من الممات فسوف تورق لا محالة.
وأخيرا فالحزن الذى يرفضه بعد كل هذه الصور المقبولة نسبيا هو ذلك الآخر الذى ليس فيه إيقاظ
للحنين ولا عتق لاسار القلب ولا اندلاع للهييب فى كأس الذكريات ثم لآحياء موات جذور الفرح الجذباء،
كل هذه التتويجات محتملة نابضة، أما ذلك الغامض المستوحش الغريب، فلا كان ولا بقى خابطا فى
الظلام كيفما اتفق.

“ لكن هذا الحزن مسخ غامض مستوحش غريب
فقل له يارب أن يفارق الديار
لأننى أريد أن أعيش فى النهار ”

وإذا كان صلاح قد تبين معالم أحرانه السابقة، ثم اعترف بمواجهة حزن جديد غريب يختلف عن كل
ماخبر قبل ذلك فأعلن عدم احتمال لهغموضه، وذهب يسعى للتخلص منه آملا أن يعيش فيما اعتاد أن
يعيش فيه، فان ذلك يدل على خبرة التجربة التى فرضت نفسها تحت لافتة الحزن دون أن تكون أيا من
الأحزان التى سبق أن تعرف عليها، ومهما نادى صلاح ربه (لاحظ إسم القصيدة: أغنية إلى الله) أن
يفارق بينه وبين حزنه هذا الجديد، فهو - كشاعر يحيا - لابد أن يحرص من طرف أخفى على استمرار
الخبرة الجديدة، حتى ولو كانت مستوحشة غريبة، ولو تحققت رغبته أن يعيش فى النهار لما تولدت
إبداعاته المتلاحقة، ذلك أن هذا الحزن الغامض المستوحش الجديد هو طرق جديد على أبواب طبقات من
التوليد والخلق تتشكل فيها الذات باستمرار، فتواجه الواقع من جديد بكرة بلا خبرة، فيطل الحزن غامضا
مستوحشا، إلا أن البكارة لا تعنى العمق بل تعنى الجدة والأصالة أبدا.

* * *

وهكذا نودعك يا صلاح ونحن نقف أمام مقطع واحد من خمسة عشر سطرا من الكلام، فاذا بنا أمام
بحر زاخر من التصانيف النفسية، وموسوعة عن أغوار الحياة كما ينبغى أن نتعرف عليها من الفن.
وهكذا نعاهدك أن نتناول الكلمات، كلماتك وكلمات غيرك، بالصدق الذى تمنى قائلها أن تصل به
إلينا وإلى غيرنا.

ولكن يا صلاح، حتى لو تركت لنا بحرا من الكلام وملأت سماءنا بالأنغام والصور، لماذا تركتنا وأنت
القادر على المزيد، لماذا ياصلاح؟ ولكن لماذا نوجه لك أنت هذا السؤال؟ هل تسامحنا ونحن نستغفر
الله ونمضى نقلب أوراقك تتفتح من خلالها عوالمنا.

يقول أولاد بلدنا أن الموت علينا حق ولكن الفراق صعب.

“ وقد بلونا الحزن حين نفترق، وحين تختفى ما بيننا الطرق، وحين تقسو اذ تموت وحدك،
تفرقت قوافل الكلام، ما عاد يجمعها حداؤك الحزين“.

[1] - عدد أكتوبر 1981 - مجلة الإنسان والتطور

إرتباط كامل النص:

www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakD110219.pdf



شبكة علوم النفس العربية

نحو لياقة نفسانية أفضل

مؤسسة العلوم النفسية العربية
معا... نذهب أبعد

لكن هذا الحزن مسخ
غامض مستوحش مخرب
فقل له يارب أن يفارق
الديار
لأننى أريد أن أعيش فى
النهار ”

أن هذا الحزن الغامض
المستوحش الجديد هو طرق
جديد على أبواب طبقات من
التوليد والخلق تتشكل فيها
الذات باستمرار، فتواجه
الواقع من جديد بكرة بلا
خبرة، فيطل الحزن غامضا
مستوحشا

قد بلونا الحزن حين
نفترق، وحين تختفى ما بيننا
الطرق، وحين تقسو اذ
تموت وحدك، تفرقت قوافل
الكلام، ما عاد يجمعها
حداؤك الحزين